بالعدوان وندافع عن انفسنا، فاننا نذكر نصف الحقيقة وحسب. فبالنسبة الى امتنا وحياتنا، نقوم بالدفاع عن انفسنا، ووضعنا المعنوي والجسدي ليس سيئاً... ويمكننا مواجهة العصابات... واذا ما سمح لنا بتعبئة كل قوانا، فانه لا يوجد ادنى شك بالنسبة الى النتيجة... ولكن القتال ان هو الا جانب واحد للصراع الذي هو ، في جوهره، سياسي. ومن الناحية السياسية، نحن البادئون بالعدوان وهم المدافعون عن انفسهم. ان الارض ارضهم، لأنهم قاطنون فيها، بينما نحن نريد ان نأتي ونستوطن، ونأخذها منهم، حسب تصورهم... يجب الا نظن ان الارهاب هو نتيجة لدعاية هتلر او موسوليني - قد يكون هذا عاملاً مساعداً، ولكن مصدر المعارضة يوجد بين العرب انفسهم»[٨].

لقد اقتبسنا كلمات بن - غوريون بشيء من التفصيل، نظراً لجديتها وجدتها. فتحليله للوضع في فلسطين لا يختلف، الى حد كبير، عن تحليل قومي ثوري عربي لطبيعة الصراع. وهو يضع القضية في اطارها السياسي القومي الصحيح، ويراها في بعدها التاريخي، في الماضي والحاضر والمستقبل؛ والاكثر من هذا تدل كلماته على احترام لعدوه وعلى تمييز بين الافندية والشيوخ من جهة (اي القيادات التقليدية) والقيادات الفدائية الجديدة من جهة اخرى.

وقد عبر موشي شاريت هو الآخر، في احاديثه، ويومياته، وخطبه، عن ادراكه للعربي الحقيقي. ففي خطاب له في التاسع من تموز (يوليو) ١٩٣٦، في اجتماع اللجنة السياسية لحزب مباي، عرَّف الثورة العربية بأنها ليست ثورة الافندية الذين يدافعون عن مصالحهم الشخصية، وانما هي ثورة الجماهير التي تمليها المصالح القومية الحقه. واضاف ان الفلسطينيين يشعرون بأنهم جزء من الامة العربية التي تضم العراق والحجاز واليمن؛ ففلسطين بالنسبة اليهم هي وحدة مستقلة لها وجه عربي، وهذا الوجه اخذ في التغيير، ان حيفا، من وجهة نظرهم، كانت بلدة عربية، وها هي قد اضحت يهودية. ورد الفعل لا يمكن ان يكون سوى المقاومة». وفي ٢٨ ايلول (سبتمبر) من العام ذاته، كان شاريت قاطعاً في تشخيصه للحركة العربية على انها ثورة ومقاومة قومية، وان القيادة الجديدة تختلف عن القيادات القديمة[٩]. كما لاحظ وجود عناصر جديدة في حركة المقاومة: اشتراك المسيحيين العرب، بل النساء المسيحيات، في حركة المقاومة[١٠]؛ ولاحظ كذلك تعاطف المثقفين العرب مع هذه الحركة، وبيَّن ان من اهم دوافع الثورة الرغبة في انقاذ الطابع العربي الفلسطيني، وليس مجرد معارضة اليهود[١١].

بين الادراك والسلوك

من كل ما تقدم، يمكن القول ان ادراك الصهيونيين للعربي كان يتخطى، في بعض الاحيان، التحيز، والمصلحة المباشرة، وسحب الاعتذاريات، ليصل الى الحقيقة التاريخية الحية. ومن هنا يطرح السؤال نفسه، لِمَ لَمْ تُعد هذه اللحظات الادراكية، على الرغم من ندرتها، تشكيل الرؤية الصهيونية ؟ وان لم تعد تشكيلها، فلِمَ لَمْ تدخل عليها على الاقل، قدراً من التركيبية ؟

لعل الاجابة عن هذا السؤال عسيرة بعض الشيء، لاننا، هنا، لا نتعامل مع عالم الافكار ولا حتى مع كيفية نشوئها وتحددها واكتسابها ملامح محددة، وانما نتعامل مع مدى تأثير الافكار في الواقع.

وهذه الرقعة التي تلتقي فيها الافكار بالواقع رقعة مبهمة غامضة ضبابية ليس لها قوانين محددة. وان كانت تحكمها قوانين ما، فهي لم يتم اكتشافها بعد. ومع هذا لن يصيبنا القنوط، وسنحاول ان نجيب عن الاسئلة التي طرحناها؛ ولكن ينبغي، مع هذا، ان ننبه القارىء الى الطبيعة الذهنية لمحاولتنا التفسيرية. ويجب ان نؤكد، ابتداءً، ان الادراك، مهما كان عميقاً وجذرياً، لا يترجم نفسه، بالضرورة، الى فعل فاضل او سلوك بعينه. واذا اردنا ان نكون اكثر حيادية ووضوحاً لقلنا ان الادراك الجذري، باعتبار انه يصل الى الواقع وجذوره، جذري وحسب، وقد يؤدي الى راديكالية ثورية